الاسم: باية

اللقب: كاهية

الرتبة : أستاذ التعليم العالي

الجامعة : محمد بوضياف مسيلة

عنوان المداخلة : الناقة بين التصوف و التراث والواقع عند عياش يحياوي .

الملخص:

لطالما كان الاهتمام بالإبل من أهم الخصائص المميزة للطبيعة والعقلية العربية في شبه الجزيرة العربية وما جاورها من بلاد العرب قاطبة ، ولعل الأمر وصل ببعض الأقوام أن عبدوها وقدسوها ومنها قبيلة طئ دون غيرها، والتي خصت الجمل الأسود والناقة المنجاب أو الفحل كثير النتاج بالتقديس ، فحتى في حال السفر عرف الجمل بسفينة الصحراء ، فقد قدس البعض البعير الذي أنجاه من مشقة السفر ، ومنها إباحة الماء والمرعى أو عدم الركوب عليها أو ذبحها ،و أغلب هذا التقديس تحقق من خلال : السائبة والبحيرة و الوصيلة والحامي ، وقد سبر الشاعر والأديب الجزائري " عياش يحياوي " صحراء الإمارات وافتتن بهذا الحيوان المعجزة والذي حباه الله بمكانة عظيمة حتى ذكر في محكم تنزيله " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت " فراح الشاعر يجول ويصول في الشعر النبطي من خلال تناوله لهذا الحيوان الأسطوري " البعير " من خلال مؤلفه " الناقة في الشعر النبطي " والذي تطرق فيه إلى كون الناقة كمفهوم ليس جديدا عند العرب الباحثين ، وإنما تناولوها بصفتها مرجعا مقدسا عند العرب ، غير أن عياش في كتابه هذا تناول الناقة كمظهر من مظاهر الثقافة الإماراتية – ولعل هذا الأمر استوحاه من انتمائه الصحراوي ونشأته الجنوبية في صحراء الجزائر وبالضبط في ضواحي الحضنة وفي مداشرها وأعراشها الداخلية وهذا ما عبر عنه حينما أشار إلى أن انتشار اسم الناقة في الجغرافيا العربية مثل : جبل الناقة في الجزائر ووادي الناقة في موريتانيا وغيرها كثير ...، ولعل من الأدلة الواضحة أيضا والدالة على ذلك هو أن أحد أقطاب مدينة المسيلة التي ينتمي إليها الشاعر وأحد أوليائها الصالحين هو " سيدي بوجملين " أو " أبو جملين " –و له قصة معروفة ومشهورة في سبب التسمية –، هذا ما يثبت حضور الناقة في ذاكرة الشاعر عياش يحياوي ، وهو ذاته الذي أثر عليه في رحلته إلى الامارات وتعايشه مع واقع المكان واستحضاره لهذه التيمة من الذاكرة ومطابقتها لاهتمام أهل المنطقة التي استوطن فيها لها .

إن حضور الناقة في الذاكرة والمكان واندماجها في المخيال الشعبي الذي تحدى الظروف مكانا وزمانا ، ورافق الجغرافيا الأدبية شعرا نبطيا معلوما ومعروفا من خلال التبرك بالناقة واقعا وشعرا حيث أطلقوا أسماء الناقة والبعير على كثير من المواقع والأماكن ، واستدل على ذلك بالعودة إلى التاريخ العربي حيث أنه في القرن الرابع والخامس قبل الميلاد كان العرب يدفنون الإبل لاعتقادهم في العبادات القديمة ، أن الإنسان عندما يبعث يجب أن تكون مطيته قربه وسيفه ، وقد وجدت بعض الآثار في منطقة " مليحة " و " الهيلي " التي تثبت ذلك وتؤكده.

مقدمة :

لقد تناول الشاعر " عياش يحياوي في كتابه " الناقة في الشعر النبطي بالإمارات " تيمة حيوان الناقة ، هذا الحيوان المليء بال أسرار والمعجزات والذي حظي باهتمام العرب منذ الجاهلية عموما وبتعلق الشعراء به ووصفهم له واحتفائهم به في بيئة صحراوية أقل ما يقال عنها أنها توائم الصفات التي حباه الله بها وميزه عن غيره بها حتى أنه ذكره " سبحانه " في محكم تنزيله ،فلقد تطرق الشاعر إلى صفات الناقة الراحلة ، مشيرا إلى أنه ليس كل ناقة مهيأة لأن تكون راحلة ، وأن الشاعر النبطي يرى أنه من العيب أن يشتري ناقته من السوق ، ولعل هذا من خصوصية العقلية البدوية التي جبل عليها الشاعرة وهو البدوي الانتماء إلى منطقة " عين الخضراء الواقعة في المدن الداخلية من جنوب الجزائر ، هذا الشعور الذي يتولد لديه منذ الصغر من خلال معاشرته لبعض الحيوانات الأليفة التي تسهل عليه حياته البدوية فيولد وقد وجد في مزرعة بيته وفي فناءها ما يحتاج إليه من حيوانات أليفة تخدمه و لينفع وينتفع بها ، ولعل هذا ما هاجر معه من طباع إلى أبو ظبي الإمارات الذي حمل معه إليها عقلية الرجل العربي البدوي الذي يعتز ببداوته وانتمائه فهو في مؤلفه هذه يصفها حينا كحال الشعراء الجاهليين ويتغنى بها ، ويعرفها حينا آخر ويعطي مفاهيم لغوية لأسمائها ومسمياتها .

الموضوع :

لا يمكن أبدا أن أيشك عاقل في كون المكانة التي احتلتها الإبل عند الإنسان العربي ، ولاتزال هذه المكانة تشغل العرب حتى أيامنا هذه لأنهم في الحقيقة لم يتوصلوا بعد إلى أسرار هذا الحيوان الصحراوي البيئة الملقب بسفينة الصحراء ، ولأنه لايزال لها من ذلك الاهتمام الحظ الوفير عند كثير من العرب والشعراء بصفة خاصة ، ومها كان من تطور تكنولوجي جريء مجنون وهجين اليوم ، فإن أحدا لن ينسى مكانة الإبل في الأدب العربي ودوره في انتشار الجنس العربي خارج الجزيرة العربية ، شرقا إلى بلاد الهند وأواسط آسيا ، وغربا إلى الصحراء الكبرى وشمالي أفريقيا و الأندلس ، فمن المعروف عند العامة والخاصة وعند العرب بصفة استثنائية أن الإبل هي أقوى الرواحل ، وأجلدها على سير وحمل ، جوع وظمأ، حر وبرد ، جبل ورمل ،لذلك ضربوا بها الأمثال في القوة والصبر والفخامة والجلد وهو حال الشاعر عياش يحياوي الذي افتتن بها وبالجغرافيا الخليجية والإماراتية بصفة خاصة حتى خص لها كتابا كاملا وأفرد لها دراسة جادة تناولتها الأقلام بالنقد والتحليل كيف لا والإبل بالنسبة لهم جميعا مصدر عز ونخوة منذ القدم إذ يجمع الشعراء الشعبيون في المشرق والمغرب على أن الإبل عز لأصحابها ولا عجب في ذلك ، فهي مهر لنسائهم ، وفداء أسراهم ، وديات قتلاهم ،ثم هي إلى جانب ذلك كله ، سفينة البر التي تنقلهم هم و أمتعتهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، ولا يمكن أيضا أن ننسى أو نتناسى منافع ألبانها شرابا ، ولحمها طعاما ، ووبرها كساء ، وجلدها نعلا وسقاء ، وبولها شفاء .لذلك قال العرب قديما :" ماخلق الله شيئا من الدواب خيرا من الإبل : إن حملت أثقلت ، وإن سارت أبعدت ، وإن حلبت أروت ، وإن نحرت أشبعت "[1].

[1]الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ،ط1،دار القلم ، بيروت 1981م، الجزء الثاني ،ص340.

الكتاب ومحتوياته :

مؤلف "الناقة في الشعر النبطي بالإمارات "، مقامات الأمومة ومسرّات الجمال :يشمل الكتاب على 310 صفحة وهو عاشر الاصدارات للمؤلف يتناول فيه التراث الثقافي الاماراتي ، يشتمل الكتاب على محاور عدة حددها في نقاط كان أبرزها :

-الناقة المقدسة وظاهرة دفن الإبل عند العرب –الإمارات نموذجا .

-الناقة في رحلات ويلفرد تيسجر من الإمارات إلى الربع الخالي "الناقة الأم "

-الناقة الأم المضحية في الشعر النبطي جمال الناقة في المخيال الشعري الجمعي

-تأثير اكتشاف النفط في مكانة الناقة بالمجتمع البدوي .

-احتلال السيارة مطالع القصيدة وغرفها الداخلية .

-الناقة مصير جديد : سباقات الهجن .

-الناقة في أشهر الحكايات الشعبية .

ويقول يحياوي في توطئة كتابه :"لم يهتم العربي قديما بحيوان اهتمامه بالناقة في مخياله الثقافي وتفصيلات مسطوره اليومي المرتبط بمصالحه المادية ، وقد كان عنصر الأمومة من أبرز عناصر ذلك الاهتمام ، ولا عجب في ذلك فقد ارتكزت حياة البدوي العربي في صحرائه الواسعة الخصبة ، الجدباء ، المضطربة ، الهادئة على وجود الناقة المتدفقة بخيرات العطاء والأمومة ، والنخلة المتدفقة بخيرات عراجينها وجسدها الذي تستمد منه صناعات تقليدية نافعة ، والبئر المتدفقة بالماء ، وكان عنصر الأمومة في الناقة محورا جوهريا في صراعه من أجل البقاء .."[2]

كما تحدث الشاعر عن العلاقة بين الشعر النبطي الحديث والشعر الجاهلي إذ يرى أنه " لم يعد محمول الناقة الأنثروبولوجي والاجتماعي العام الذي عايشه الشاعر الجاهلي مهيمنا على تراث الناقة في مجتمع الإمارات الذي تخلصت ذاكرته الثقافية من أساطير العرب قبل القرن السابع الميلادي بفعل تأثيرات الثقافة الإسلامية ومستجدات حركية المجتمع في التاريخ والتاريخ في المجتمع ، على الرغم من احتفاظه بالمخيال العربي الجاهلي المتجلي في الشعر النبطي على وجه الخصوص ، تقف وراء ذلك علل عديدة منها أن الشاعر النبطي الاماراتي ظل يستمد طاقته الإبداعية من الموروث الشعري الجاهلي لتشابه الظواهر الإثنوغرافية وأصالة المرجعيات البدوية الصحراوية ، وعدم اختراقها قرونا عدة من قبل الجوار الثقافي الإقليمي ، وحرص الإنسان البدوي في الإمارات على نقاء محتده العرقي و السوسيولوجي .."[3]،.

-عياش يحياوي : الناقة في الشعر النبطي بالإمارات، عاشر كتاب له في التراث الإماراتي ،موقع كلمات للإبداع والفكر،2023/03/07في18.09 ،[2]

[3]-المرجع نفسه .

ولعل الشاعر في اختياره لهذا الموضوع ألا وهو موضوع الناقة أو الإبل بصفة عامة مرده انتماءه و ميولاته الصوفية حيث يرى الكثير من المتصوفة من أمثال ابن عربي في ديوانه الترجمان الذي يتجلى فيه معنى التأويل :

ناديت إذ رحلت للبين ناقتها يا حادي العيس لا تحدو بها العيسا

قف بالمطايا وشّمر من أزمنتها بالله بالوجد بالوجد والتبريح ، ياحادي

حتى أسائل أين سارت عيسهم فقد اقتحمت معاطبا ومتالفا

فالناقة والمطايا والعيس مترادفات تؤول بالهمم في أغلب المواطن ، وبذلك تصبح الهمة معنى باطنيا للناقة ،بيد أن هذا المعنى ينحرف قليلا أو كثيرا في بعض السياقات التي يلمس منها وإضافة على المعنى الظاهر المتعلق بالناقة مثل :

قطعت إليها كل فقر ومهمة على الناقة الكوماء والجمل العود

فالناقة الكوماء تأويلها الشريعة ، والجمل العود تأويله العقل المجرب إذ إنه حدث انزياح في المعنى الباطني لحدوث صفة جديدة على المعنى الظاهري فالناقة امتازت بعظم السنام وطوله مما جعل الهمة تأخذ شكل الشريعة لأن الحفاظ على مظاهر الشريعة صورة من صور الهمة ، هذا فضلا عما يستدعيه الجذر من معاني الظهور والبروز التي توازي عظم السنام وبروزه ، كذلك الجمل العود ، وهو الجمل المسن الذي يرمز إلى الخبرة والمعرفة والحنكة "[4]

وعلى هذا فإن الشاعر حاول استعمال رموز شعراء الصوفية للنفس الإنسانية السالكة إلى ربها بالعيس والناقة والوجناء التي يركبها المريدون حتى توصلهم إلى مراتب المعرفة والولاية وهذا يعني أنها وسيلتهم في سفرهم إلى الله وإن لم يعتمدها شعرا فقد اعتمدها موضوعا ومضمونا لكتابه الذي اختار فيه الناقة دون غيرها لتأثير البيئة فيه والفن والمذهب فمذهب الصوفية الواضح خاصة في اعتمادهم الناقة خصيصا يدل على صدق مجاهداتهم وسلوكهم المستمر إلى الله والرياضة النفسية التي يتبعونها لتنقية نفوسهم من شوائب الذنوب ،حتى تصبح روحانية لطيفة .

[4]-أمين يوسف عودة :تأويل الشعر وفلسفته ، عالم الكتاب الحديث ،دط، الأردن ،2008مص112